مقدمة

هذه الدراسة محاولة لتقديم مقارنة شاملة بين الأديان والفلسفات والعلوم الاجتماعية، اعتدنا من قبل كان التركيز إما على مقارنة الأديان وحدها، أو مقارنة الفلسفات وحدها، أو دراسة الدين من منظور فلسفي في الفرع الفلسفي الشهير «فلسفة الدين»، أو دراسة الدين من منظور علم اجتماعي أو إنساني واحد مثل علم النفس الديني أو علم الاجتماع الديني أو غيرها من العلوم. أما هذه الدراسة فتسعى إلى تقديم رؤية أكثر شمولًا لهذه المجالات، فتضمها في حقل واحد ربما يتيح الفرصة لرؤية أوسع للنظر إلى العقائد الإنسانية من أكثر من زاوية، خاصة مع عدم إغفال هذه الدراسة لمنجزات علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني، والأنثروبولوجيا الدينية.

وإذا كان علم مقارنة الأديان قد استمر لمدة طويلة مرتبطًا بالدفاع عن عقائد معينة؛ حيث كان جزءًا من اللاهوت أو علم أصول الدين أو علم الكلام، ثم تحول إلى علم وصفي في العصور الحديثة، فإن هذه الدراسة تأمل في توسيع أفق علم مقارنة الأديان ليتحول من مجرد علم وصفي إلى علم نقدي فلسفي، يجمع بين الوصف العلمي والتحليل الفلسفي والنقد العقلي الملتزم بمعايير المنطق، خاصة معايير الاتساق الذاتي في البناء الداخلي للدين أو معايير الاتساق مع الواقع الخارجي. وسوف نوظف تلك المعايير لا في شكلها الكلاسيكي، وإنما في أشكالها الأكثر تطورًا في العصور الحديثة. فضلًا عن مقارنة ما تقوله الأديان عن العالم وما تقدمه منجزات العلوم الطبيعية من قوانين تم ثبوتها بطرق وصفية، ومن ثم يخرج منها كل ما لا يزال في طور النظرية أو التجريب.

ونظرًا لأن مجال المقارنة مع العلوم الطبيعية واسع جدًّا، مما تضيق عنه صفحات هذا الكتاب، فسوف نفصل فيه القول في كتاب منفصل إن شاء الله تعالى.

لكن ربما يسأل القارئ: وما أهمية هذا في عصر تسود فيه المعرفة العلمية الوضعية؟

لأنه رغم التقدم العلمي الكبير الذي حققته الإنسانية؛ لا يزال الدين أمرًا مشوقًا وجذابًا لكل العقول، سواء كانت هذه العقول تؤمن به أو تكفر. وبالرغم من كل الهجمات الضاربة التي تعرضت لها الأديان، فإنها تمكنت من الاستمرار في الحياة، والخروج من الأزمات والاختبارات الكبرى أكثر صلابة وأعز سندًا؛ حتى أن كل اختبار يتعرض له الدين، يغدو عاملًا فعالًا في تطهير الدين لنفسه من العوالق والبدع والأحمال التاريخية، بدلًا من أن يهدمه أو يحصره في زاوية ضيقة.

وربما يرجع ذلك ـ من بين ما يرجع ـ إلى أن الدين يقدم الإجابة عن هموم الإنسان الأزلية:

الإنسان .. من أين؟ .. وإلى أين؟

العالم .. ما حقيقته؟ .. وإلى أين يسير؟

الوجود .. لِمَ كان؟ .. ولِـمَ لَـمْ يكن بالأحرى عدمًا؟

الله .. هل هو كائن؟ .. وماذا يريد منا؟

ونظرًا لأن الدين هو المجال المعرفي الوحيد ـ حتى الآن ـ القادر على تقديم إجابات شاملة عن تلك المسائل، فإنه لمن المغالطة الظن بأن الكهنة اخترعوا الأديان لكي يخدعوا الشعوب؛ فالدين غير المحمل بالتفسيرات والتوظيفات المشبوهة لا يمكن اعتباره أفيونًا للشعوب؛ لأن الدين ما هو إلا حركة سير الروح الإنساني نحو الروح اللامتناهي؛ بمعنى أنه مسار الفكر الذي لا يكتفي بأن يفكر في المادة والحس؛ بل يقفز إلى عالم المجرد. وإذا قال الملحد: «إنه لا ينبغي أن يكون هناك مثل هذا الانتقال؛ ومن ثم لا ضرورة للدين»، فكأن لسان حاله يقول: «إنه لا ينبغي أن يكون هناك تفكير»؛ حيث إن التفكير هو انتقال من المحسوس إلى المجرد. والواقع أن الحيوان لا يقوم بمثل هذا الانتقال؛ فهو لا يرتفع مطلقًا عن مستوى المحسوس المادي؛ ولهذا فإنه بغير دين. أما الإنسان فبحكم تكوينه الأنطولوجي، يسعى لتمزيق سلسلة المحسوسات المتناهية، والارتفاع فوقها نحو اللامتناهي الذي بدونه لن يكتسب الوجود معنًى يمكن أن يعيش الإنسان من أجله. ويتجلى هذا اللامتناهي في الدين بوصفه الله.

ومن هذه الزاوية، يمكن تحديد الدين بأنه ما يشعر الإنسان في وعيه بعدمية المحدود وتبعيته وقصوره وعدم اكتفائه بذاته؛ فيبحث عن العلة الكافية للوجود والمكتفية بذاتها.

وهنا يضع نفسه أمام المطلق اللامحدود. وبناءً على هذا، وفي عبارة قصيرة، يظل الدين مكتسبًا أهميته من كونه يمثل المجال المعرفي القادر على إرضاء النزوع الروحي في الإنساني عندما لا يكتفي بالمتناهي ويسعى نحو اللامتناهي.

ويسعى هذا الكتاب إلى تعريف القارئ العربي بعلم مقارنة الأديان وفلسفة الدين باعتبارهما مجالين معرفة متميزين، وعلاقتهما بالعلوم الأخرى، وتعريفه بالديانات العالمية على أساس من رؤية تحليلية نقدية مقارنة.

كما يحاول توظيف المناهج العلمية والفلسفية الحديثة في دراسة الأديان. وقد استفاد بشكل واضح من جهود مناهج النقد التاريخي، ومناهج نقد النص، والنقد الشكلي. كما فحص واستفاد في الوقت نفسه من جهود المدرسة التحليلية، واللاهوتيين الأحرار، والعقلانيين، ونتائج علم الاجتماع الديني وعلم النفس الديني...إلخ؛ ولذا جاء منهجه في البحث مركبًا من عدة مناهج جمع بينها في توليفة علمية متوافقة، ومن هنا نجده تارة وصفيًّا، وتارة تحليليًّا، وتارة مقارنًا نقديًّا، حسب السياق الذي يبحث فيه والموضوع الذي يتناوله.

ويبقى في النهاية ضرورة الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو خلاصة مجموعة الأبحاث والدراسات التي قمت بها خلال العشرين سنة الأخيرة، وإذا كان أغلب هذه الأبحاث مكتوبًا بلغة أكاديمية متخصصة، فقد حرصت على تقديمها للقراء في هذا الكتاب بلغة أكثر بساطة وأشد وضوحًا دون التفريط في مستوى العمق.

والله من وراء القصد.. وإليه المنتهى..

د. محمد عثمان الخُشت
الأستاذ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة